

الفصل التاسع

وسيلة السعادة

إن السعادة المسيحية أو القناعة المسيحية هي النقيض لروح التذمر. إنها تبدأ داخل قلوب المؤمنين. لا يمكن أن تحتفظ السفينة بتوازنها في البحر بدعامات من خارجها، بل من داخلها. هكذا لا يوجد شيء خارجي يمكن أن يضمن للمؤمن سعادة مستمرة، إنما الحاجة إلى نعمة في الداخل. وإذا كان للمؤمنين هذه النعمة في داخلهم، فيمكنهم أن يتبعوا بعض الخطوات العملية التي تساعد في الحصول على سعادة حقيقية.

أولاً: عليهم أن يتحذروا من الإنغماس في مشاغل هذا العالم. وليس المقصود بهذا الاعتزال عن العالم، بل قد يقودهم الله ليشغلوا مهام معينة في هذا العالم. ولكن إن أراد المؤمنون أن يختبروا سعادة حقيقية، عليهم ألا يتعدوا الحد الأدنى من الإنشغال بأمور هذا العالم.

ثانياً: عليهم أن يطيعوا كلمة الله، المعلنّة في الكتاب المقدس. وهذا ليس بالأمر العسير؛ فالكتاب المقدس يوضح أن الله يجعل كل الأشياء تعمل معا للخير للمؤمنين (رو8: 28)؛ لذلك فعندما يخدمون الله، إنما هم يخدمون سيّداً وضع في قلبه أن يوفر لهم الأفضل. عندما يفهم المؤمنون هذا يمكنهم أن يخضعوا لإرادة الله بكل سرور.

ثالثاً: وعلى مثال أبطال الإيمان الذين ذكروا في عب11 يجب أن يعيشوا بالإيمان ليتفهموا ظروفهم أو ليتقبلوها، وأن يكون إيمانهم، ليس محصوراً في وعود الله فقط،

بل في الله نفسه؛ فهو يعتني بهم للدرجة التي تغنيهم عن القلق من جهة كل الأشياء. قال سقراط (469 – 399 ق.م)، الفيلسوف الوثني: "مادام الله مهتمًا بكم بهذه الدرجة، فلماذا تهتمون بأي شيء؟" في أوقات الضيق، يجب على المؤمنين أن يلقوا أحمالهم على الله، وأن يُسلموا طرقهم له. إن الثقة بالله ستحقق لهم حينئذ السلام والسعادة.

رابعاً: يجب أن يبذلوا كل الجهد ليكون لهم الذهن الروحي لكي "يطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله" (كو3: 1). إذا تقلص الوقت الذي يفكر فيه المؤمنون في الأمور السماوية – بينما هم يقضون الأوقات الطويلة في التفكير في رغباتهم – فإنهم يجلبون على أنفسهم التعاسة. أما إذا انشغلوا بالأمور السماوية، وقضوا وقتاً في الشركة مع الله، فلن يصابوا بالاكتئاب عندما يواجهون مشاكل في الأمور الأرضية، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالخطوة التالية.

خامساً: على المؤمنين ألا يتوقعوا الشيع من وفرة الأمور الأرضية، فقد كتب بولس: "إن كان لنا قوت وكسوة فلنكتف بهما" (1 تي6: 8). إن الذين يتطلعون إلى أشياء كثيرة، غالباً ما يصابون بالإحباط، ولذلك يجب على المؤمنين أن يكونوا قانعين بما عندهم. يجب أن يتبعوا نصيحة باروخ: "وأنت هل تطلب لنفسك أمورا عظيمة؟ لا تطلب" (إر45: 5). أما إذا توقع المؤمنون أمورا روحية عظيمة، فلن يصابوا بالإحباط.

سادساً: يجب أن يموتوا عن العالم. قال بولس الرسول: "إني... أموت كل يوم" (1 كو15: 31). يؤمن المؤمنون بأن المصدر الحقيقي والوحيد للسعادة لا يوجد إلا في الأمور الروحية. وهناك نوع من الموت عن أمور هذا العالم، ويزداد ظلام هذا الموت في نور مجد الله ونعمته.

سابعاً: يجب ألا يجترأ متاعبهم. إن الطفل الذي يخدش البثور التي تظهر على جلده، يعطل شفاءها. وقد يفعل المؤمنون مثل هذا بمشاكلهم، فلا يتوقفون عن الحديث عنها، للدرجة التي بها تقضي على أوقات صلاتهم؛ مما يؤدي إلى شعورهم بحال أردأ؛ لأن

مشاكلهم تبدو لهم أكبر من حجمها الحقيقي. ما أجمل أن نفكر في إحسان الله لنا! عندئذ لا نجد وقتاً للتذمر والضيق. عندما ماتت زوجة يعقوب وهي تلد، طلبت أن يسمي المولود بن أوني"، ومعناه "ابن حُزني"، على أن يعقوب لم يُرد أن يكون هذا الولد سبباً في تذكيره بالحزن الشديد، لذلك دعاه "بنيامين" ومعناه "ابن يميني". هذا الاتجاه الإيجابي يُعين المؤمنين دائماً ليجدوا السعادة الحقيقية.

ثامناً: بناء على ما سبق، عليهم أن يجتهدوا أن يكون تفكيرهم عن معاملات الله معهم تفكيراً إيجابياً. ياله من صديق مسكين ذلك الذي يُسيء فهم أفعال صديقه دائماً، وينسبها إلى كل الدوافع الجائرة. وبنفس الطريقة يخطئ المؤمنون عندما يسيئون فهم معاملات الله معهم. عليهم أن يفكروا بإيجابية فيما يعمله الله، ويعللون هذا بالقول مثلاً: "إن الله رأى في وُلعي بهذا الأمر خطراً عليّ، لذا ففي رحمته أبعدني عنى"، أو "إن الله رأى أن استمرارى في العنَى يُعرضني للسقوط في الخطية، ولذلك ففي رحمته أفقرني"، أو "إن الله يُعدني لمهمة معينة في فكره، وأنا مسرور بذلك". إن المحبة لا تفرح بالإثم (1كو13: 6)، فإذا أحببت أحداً فإنك تفسر أفعاله تفسيراً رقيقاً، فإذا كانت هناك تسعة تفسيرات سيئة لمعاملات الله معك، وتفسير واحد طيب، إلزم الواحد وانسى التسعة.

تاسعاً: يجب ألا يهتموا كثيراً بأراء الآخرين، فمثلاً قد يأتي أحدهم ليسلب المؤمنين سعادتهم التي يتمتعون بها، عندما يخبرهم بأن شيئاً ما ينقصهم. فإذا كانوا قانعين قبل سماع رأي الآخرين، فلماذا يفسحوا المجال لأفكار غير المؤمنين لتكدرهم؟ إن السعادة المسيحية الحقيقية لا تعتمد على ما يقوله الآخرون.

كيف يحصل المؤمنون على السعادة؟ يمكننا تلخيص كل ما سبق في هذه العبارة: "على المؤمنين ألا يدعوا مباح العالم تأسرهم، وعندئذ لن يحزنوا إذا فقدوا الممتلكات أو العائلات، أو الشهرة، أو غير ذلك.